

الرئيسية ثقافة

القرّاء وحال المكتبات في دمشق: نزار قباني وابن تيمية

زيد قطريب | الأحد 2025/06/01



كتب كانت ممنوعة في زمن النظام السابق

مشاركة عبر





اقتفاء أثر مزاج القراء في دمشق، مغامرة محفوفة بالمفاجآت. فمشهد انتشار بسطات البالة، على حساب الكتب في منطقة الحلبوني، يغيّر توقعاتكَ حول جغرافيا تحفل عادةً بالكتب المستعملة، ومطبوعات "الريزو"، المقرصنة من مؤلفات باولو كويلهو وبورخيس وإيزابيل الليندي، لتجد مكانها عروض "الجرابات" وسراويل الجينز ومعدات الخردة!

أين اختفى "أبو إياد"؟ ذلك الفلسطيني، الذي يبيع دواوين محمود درويش وسميح القاسم، عند الجدار الجنوبي لبناء "التكيّة" الأثري؟ وهل شاء بائع بسطة الروايات العالمية، تحت جسر فكتوريا، أخذ إجازة طويلة، ليحل مكانه بائع "المعروك" والدخان المهرّب؟

يفاجئك أحد القراء الشباب، وهو يسأل عن ديوان المتنبي، فتتمسك به، كأنك عثرت على كنز، فيخبرك أنه يحب أبا الطيب كثيراً، ويشتهي اقتناء ديوانه في مكتبته المتواضعة بالمنزل.

على الطرف المقابل، حوّل أحدهم مدخل إحدى البنايات، إلى بسطة لبيع الكتب الدينية. هنا تستطيع العثور على كتاب "دفع الملام عن الأئمة الأعلام" لابن تيمية، وإلى جانبه "السيرة النبوية"، وآثار أئمة الفقه والتفسير، فتسأل البائع إن كان مختصاً بكتب التراث الديني، ويجيب بأن مزاج القراء اليوم، يفضل هذا اللون من المؤلفات!



نتابع الطريق إلى مكتبة "النوري"، فيؤكد لنا صاحب المكان، بأن الكتب التي كانت ممنوعة في عهد النظام البائد، تتصدر واجهة الاهتمام اليوم، ويشير إلى مجموعة مثل "وراثة سوريا - اختبار بشار بالنار" لفلايت ليفريت، ومذكرات فاروق الشرع وهنري كيسنجر وخالد العظم. ويقول: "إلى جانب كتب السياسة التي تفضح أو تنتقد النظام السابق، تحضر الكتب الدينية الممنوعة، وفي مقدمتها مؤلفات ابن تيمية، الذي يحظى باهتمام واسع بين الشباب". نسأله عن حال مؤلفات نزار قباني، وإن كان ديوان "طفولة نهد" أو "قالت لي السمراء"، متوفراً لديه؟ فيبدي امتعاضه من السؤال، مؤكداً أن زمن هذا النوع من الكتب قد ولّى إلى غير رجعة!

يشكو صاحب مكتبة النوري، من تدني الدخل الشهري للمواطن، ويقول، إن الناس مشغولة اليوم بلقمة العيش وليس بغذاء الدماغ، فالحال الاقتصادية الصعبة أثرت على اهتمامات البشر وأذواقهم، لكنه يؤكد أن الحريصين على اقتناء "خير جليس"، يبدون اليوم مهووسين بالكتب التي كانت ممنوعة سابقاً، وفي مقدمتها كتب السياسة والدين.



لكن الحال في مكتبة "الصفدي"، القريبة من جسر فكتوريا، تبدو مختلفة قليلاً، فالعامل على تلبية طلبات الزبائن منذ سنوات، لم يلحظ تبدلاً جوهرياً في أذواق القراء، ويقول إن كتب الروايات العالمية المترجمة هي الأكثر طلباً لديه. ويضيف: "تقدم مكتبتنا خدمات خاصة بالطباعة وتصوير المستندات، إلى جانب بيع الكتب، ولهذا ربما كانت مقاييسنا مختلفة عن المكتبات المختصة بمتابعة أحدث المؤلفات وأكثرها إشكالية". نحاول أن نستفزه أكثر، فنسأل عن تفوق قصيدة النثر، في قراءات المهتمين، على القصيدة العمودية؟ فينحاز مباشرة للقصيدة القديمة، مؤكداً أنها تراث الأجداد، التي يمكن غناؤها وتردادها، ويذكرنا بأغنيات أم كلثوم الخالدة!

من الصعب علينا اليوم، الحصول على آراء مكتبات شهيرة غابت منذ سنوات عن المشهد، فمكتبة "نوبل" مغلقة ومطروحة للبيع أو الاستثمار، أما مكتبة ميسلون، فتحولت منذ سنوات إلى مكتب لشركة اتصالات خليوية، أما مكتبة الطابق الأرضي في فندق الشام، فمعروضاتها، نوع من البريستيج الذي عليه أن يكمل المشهد السياحي، ليتيح تعدد الخيارات أمام الزبائن الفارهين.



دفن الكاتب المرحوم!

لم ينج "خير جليس" من مبضع الرقابة بعد الثورة، فمديرية الرقابة في وزارة الإعلام، أصبح اسمها "مكتب التقييم الإعلامي"، ومثلما كانت هناك قائمة طويلة من الممنوعات أيام نظام الأسد، بات هناك اليوم ممنوعات من لون مختلف. وقد سببت تلك القضية مشكلة مع اتحاد الناشرين السوريين ودور النشر، الذين طالبتهم وزارة الإعلام بعرض مطبوعاتهم على الرقابة قبل شحنها إلى المطارات للمشاركة في المعارض الخارجية أو الداخلية. لكن الوزارة جمدت القرار حينها، بسبب ضيق الوقت وارتباط دور النشر بمواعيد معارض الكتب، وفي الوقت نفسه، بقيت الرقابة متحفزة جاهزة للتدخل في أية لحظة.



صويلح منتقداً هذه الظاهرة. وقال: "هناك مخاوف من محاولات هدم البنية التحتية للثقافة السورية، بذريعة تأسيس مشهدية مغايرة لا تشبه تاريخ هذه البلاد"!

لا يمكن نقاش مزاج القراء، بمعزل عن آليات الرقابة على المطبوعات. هكذا يتساءل الشاعر أحمد سبيناتي، عن طبيعة المؤلفات، التي سيسمح بعرضها في معرض دمشق الدولي للكتاب، إذا ما أقيم خلال أيلول/ سبتمبر المقبل؟ ترى ماذا سيكون الموقف من الترجمات الفلسفية والروائية العالمية الثقيلة، التي تتناول مختلف القضايا بلا خطوط حمراء؟
بقدر ما تحتاج القراءة إلى إنعاش، تحتاج مساحاتٍ مفرودة من الحرية. هكذا ينتظر هواة ومحترفو صناعة الكلمة، الخروج النهائي من أحادية اللون المحدود، إلى احتمالات الخيال في ألوان قوس قزح!



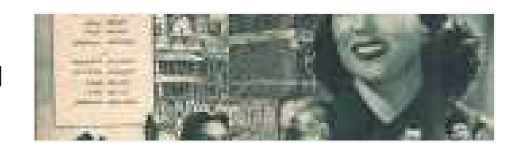
التعليقات

التعليقات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

الأكثر قراءة



الإيغور كطبقة أنساب جديدة في سوريا


الأغنية التي ردت بها ليلى مراد على إسرائيل


الأعمال الكاملة لإياد شاهين: القصائد يُنقذها ...


سلمان رشدي: من الفتوى إلى "السكين"


توبي ناثان: الأمراض النفسية مرآة الثقافة


المدن
جريدة إلكترونية مستقلة


جريدة إلكترونية مستقلة


جريدة إلكترونية مستقلة


جريدة إلكترونية مستقلة





